حوليات آداب عين شمس المجلد 53 (عدد يناير – مارس 2025)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

دور الملكة ايزابيلا السياسي في سُقوط مملكة غَرناطة

د/ ثروت أحمد محمود عبيدات*

باحثة دكتوراه/ قسم التاريخ / جامعة مؤتة
alceasetosa97@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2024/12/20
تاريخ قبول البحث: 2025/01/04
تاريخ النشر: 2025/03/30

المستخلص:

يقوم هذا البحث بدراسة الدور السياسي الذي لعبته ملكة مملكة قشتالة وليون، الملكة الكاثوليكية ايزابيلا، وتأثير دورها السياسي على سقوط مملكة غَرناطة ومساعيها (أي مساعي الملكة ايزابيلا) الدؤوبة التي استمرت إلى ما بعد سقوط غَرناطة وحتى حين وفاة الملكة ايزابيلا ذاتها في عام 1504 م، والتي كانت تهدف لإنهاء وتدمير الإسلام والمسلمين في اسبانيا، وبينما يعد هذا (أي أن دراسة الدور السياسي لملكة قشتالة وليون الملكة الكاثوليكية ايزابيلا وتأثيره على سقوط غرناطة ومساعيها بعد سقوط غَرناطة وإلى حين وفاتها لإنهاء وتدمير الإسلام والمسلمين في اسبانيا) هوالموضوع الرئيسي الذي يدرسه هذا البحث عمد هذا البحث أن يسلط الضوء ويناقش بعض المواضيع الفرعية المندرجة تحت الموضوع الرئيسي ليتيح للباحثين أوالقراء من أي فئة كانوا أن يحصلوا على نظرة شاملة على الموضوع الرئيسي، وذلك من خلال إلقاء نظرة عن كثب على مولد الملكة ايزابيلا، ووالديها الملكيين، وإخوتها، وأجدادها، ومن ثم التعمق في كيفية وراثتها لعرش مملكة قشالة وليون وكيفية زواجها من ملك مملكة أراجون فرديناند الخامس والعواقب التي ترتبت على زواج الملوك هذا، ومن خلال التمعن بصفات أوبسمات شخصية الملكة ايزابيلا التي اتصفت أواتسمت بها سواء كانت تناسبها أم لا كإحدى الملكات التي تحدث عنها التاريخ بالخير أوبالشر حسب منظور المؤرخ، كما ويكشف البحث عن المحاولات الصادقة لسلاطين غَرناطة وخاصة السلطان علي أبوالحسن للدفاع عن مملكة غَرناطة من جشع الملكيين الكاثوليكيين، ومن ثم يتقصى هذا البحث الدور السياسي الذي لعبته الملكة ايزابيلا أثناء حصار وتسليم وسقوط غَرناطة، وفي النهاية يتطرق هذا البحث بوضوح إلى أفعال ديوان التحقيق الإسباني أومحاكم التفتيش وإلى سلطة الملكة ايزابيلا على محاكم التفتيش هذه.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2025.

المقدمة:

لطالما ساهمت المرأة ولعبت أدورا في شتى المجالات الاجتماعية منها، أوالاقتصادية، أوالعلمية، أوالثقافية، أوحتى السياسية وغيرها، وإن اختلف هذا الدور من حيث الأهمية والتأثير باختلاف البيئة الجغرافية، أوالدين المعتنق المتخذ كعقيدة في فترة ما أومكان ما، أوفي حالة وقوع تغيرات اجتماعية، أوتغيرات السياسية وما يصاحبها من إلغاء للدستور أوتعديل في قوانينه التي تختلف وفقا للسلم والحرب، أوحسب اختلاف الأعراف باختلاف المكان والزمان، وكذلك اختلاف المكان الاجتماعية للمرأة، واختلاف المناصب التي يمكن للمرأة تقلدها أوقد لا يجوز لها ذلك البتة وفقا لما ذكرته آنفا، وهنا سأتحدث في هذا البحث عن إحدى النساء التي أتاحت لهن مجريات القدر وبيئتهن الجغرافية والفترة السياسية التي ولدت وتربت فيها ما لم يتاح ولم تحظى به امرأة إلى عصرنا هذا إلى حين كتابتي لهذا البحث بمثله، إذ أنها تُوِّجت أتيح لها أن تمارس دورها السياسي دون أدنى نقص أوخوف ودون قيد أوشرط، وكانت السبب وراء انتهاء الحكم الإسلامي في آخر معقل من معاقل الأندلس، كما ارتكبت بموافقتها وتحت مرأى ومسمع منها، أعظم الجرائم باسم الحفاظ على الدين التي شهدتها البشرية، وسُجلَّت كوصمة عار في تاريخ اسبانيا النصرانية كما وكانت السبب في اكتشاف العالم الجديد ورسم خريطة عالمنا المعاصر، وإني هنا لأتحدث عن الملكة الكاثوليكية ايزابيلا ملكة مملكة قشتالة وليون، التي قَطَّعَت بخنجرها أعظم رمانة عرفها التاريخ الأندلسي والإسلامي، ألا وهي رمانة الأندلس غَرناطة، وتركتنا إلى الآن في رثاء وحزن لم نعلم لهما من نهاية بعد على ما ارتكبته في حق مسلمي الأندلس من الفظائع والجرائم والتي ستبقى إلى الأزل نقيصة وفضيحة ووصمة خزي في تاريخها كملكة رُوِّج لها على أنها بطلة قومية في الكتب التاريخية والأدبية الإسبانية.

أخبار ولادة ايزابيلا والتعريف بوالديها، وإخوتها، وأجدادها.

وُلدت الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) Isabella الملكة الكاثوليكية في 22 من شهر نيسان / ابريل سنة 1451 (22nd of April 1451) في مادريجال Madrigal.[1]

وهي ابنة ملك قشتالة "خوان الثاني" (John II or Juan II of Castile) الذي حكم قشتالة قرابة نصف قرن (أي قرابة خمسون سنة) إلى أن توفي في شهر تموز / يوليوسنة 1454م (July 21st 1454) وعلى عكس ابنته ايزابيلا كان الملك خوان الثاني ضعيف الرأي وواهن العزم، عاشقا للهو، منفقا وقته في حفلات الصيد والفروسية (ومن حفلات الفروسية ما كان ينعقد في غرناطة وتعرف بحفلات الفروسية الأندلسية ويشارك فيها كلا من القشتاليين والأندلسيين الغرناطيين في مباريات ودية بين الطرفين)، أما عن والدة الملكة ايزابيلا واسمها ايسابيلا البرتغالية (أي أنَّ الأم والابنة تحملان الاسم ذاته ايسابيلا) وهي الزوجة الثانية للملك القشتالي " خوان الثاني " وقد أنجب منها ابنته ايزابيلا (ايسابيلا) Isabella وابنه ألفونسو Alfonso وهما أصغر أبنائه، إذ كان قد رزق قبلهما من زوجته الأولى بولد ذكر اسمه هنري Henry. [2]

وجدة ايزابيلا لأبيها الملك " خوان الثاني " هي الملكة "كونستانس" حفيدة الملك " إدوارد الثالث " ملك انجلترا من ابنه الأمير "جون"، كانت قد تزوجت من الملك "هنري الثالث" ابن الملك "خوان الأول" وأنجبت منه الملك " خوان الثاني " الذي خلف والده على عرش قشتالة وهوما يزال طفلاً يقارب عمره العامين ووالدته الملكة "كونستانس" سليلة العرش الإنجليزي إحدى وصييه على العرش، وعلى ما يبدوأن الملكة ايزابيلا كانت شبيهة بجدتها التي تمكنت أن تحفظ لولدها والد ايزابيلا عرشه على الرغم من توليه العرش صغيرا وعلى الرغم من سوء خلاله.[3][4]

ويعد زواج الملكة الإنجليزية كونستانس بالملك القشتالي هنري الثالث كغيره من المصاهرات ذات الدوافع السياسية التي تخفي في طياتها مطامع بعيدة الأمد، وهنا لا يسعني إلا أن أعطي وجهت نظري في المصاهرات السياسية وأخص تلك التي ربطت بين أفراد من أسر حاكمة في ممالك إسبانيا النصرانية على اختلافها وتعددها مع أفراد الأسر الحاكمة في بلاد الفرنجة (في أوروبا) إذ أنها من وجهت نظري شكلت أحد أهم الأسباب التي عملت على إذكاء وتأجيج وتوطيد فكرة حروب الإسترداد في اسبانيا النصرانية ضد الأندلس الإسلامية فكانت بلاد الفرنجة بفضل روابط المصاهرة هذه الملاذ الذي تلوذ به وتلجأ إليه ممالك اسبانيا النصرانية في كثير من الأوقات في حروبها مع الأندلس الإسلامية.

وراثة ايزابيلا لعرش مملكة قشتالة وليون وزواجها من ملك مملكة أراجون فرديناند الخامس.

لم تكن الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) الكاثوليكية من خلفت والدها على العرش بعد وفاته وإنما أخاها " هنري الرابع" (أخوها من أبيها من زواجه الأول أي أخوها غير الشقيق) الذي كان يشبه أباه من حيث الضعف وانحلال الأخلاق والعجز عن حكم قشتالة وعلى الرغم من ذلك استمر حكمه لقشتالة إلى أن توفي سنة 1474م.[5]

ولكن السؤال الذي يطرح هنا ؛ كيف وصلت الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) إلى عرش قشتالة ؟ ألم يكن للملك هنري الرابع عقبا بعد وفاته فكانت أخته من أبيه الأميرة ايزابيلا (ايسابيلا) المرشحة الوحيدة لحكم قشتالة ؟

لم يكن للملك هنري الرابع من الأولاد سوى ابنته الطفلة " خوانا " princess Joanna التي تركها بعد وفاته، وتكمن المشكلة في وراثة الطفلة " خوانا " عرش قشتالة لا لكونها أنثى فإيزابيلا أنثى أيضا ولا لأنها طفلة صغيرة السن (أي تحتاج الوصاية) ولكن نسبتها إلى الملك هنري الرابع على أنه أباها وهي ابنته كانت مدعاةً للشك ومحاطة بالشك ويصحبها الشك ومثاراً للشك، فقد نُسبت أبوتها إلى صديق الملك هنري الرابع " بلتران دي لا كويفا " أي أن والدها الحقيقي هوصديق الملك وليس الملك نفسه، وبالتالي ناصرها في أحقيتها لوراثة عرش قشتالة من النبلاء فريق صغير، بينما كانت الأميرة ايزابيلا (ايسابيلا) على عكس ابنة أخيها تماما فقد حظيت وراثتها لعرش قشتالة بدعم ومناصرة فريق كبير من النبلاء، كما كانت تتمتع على الصعيد الشخصي بعطف الشعب القشتالي وحبه وإعجابه لما كانت عليه من الرقة والتواضع والاحتشام من منظور هذا الشعب القشتالي، ولم ينكر أويمنع أويقمع أخوها الملك هنري الرابع حقها في أن تعقبه في وراثة عرش قشتالة بل على العكس اعترف بحقها ذاك، وأيّد الكورتيس أي مجلس النواب في مملكة قشتالة حق الأميرة ايزابيلا (ايسابيلا) بوراثة العرش بعد أن توفي أخوالملك هنري الرابع غير الشقيق وأخوها الشقيق ؛ ووريث الملك

هنري الرابع على العرش " ألفونسو" حيث وجد ميتا في فراشه في الخامس من تموز / يوليوسنة 1468م (5 – 7 – 1467م)، في قرية كاردينوسا Village of Cardenosa .[6] [7]

قبلت الأميرة ايزابيلا الزواج من الأمير فرديناند (فرناندوالأرجوني) ورفضت عروض الزواج الأخرى على كثرتها وذلك كي تتحد كلا من مملكة قشتالة ومملكة أرجون في مملكة واحدة متحدة وهي المسعى الذي كان يطمح لتحقيقه الملك خوان الثاني والد فرناندوالخامس ملك مملكة أرجون، ومما أكد على تمسكها بدورها السياسي كملكة عدا اختيارها وقبولها لفرناندودون سواه على الرغم من أن أخاها الملك هنري الرابع كان رافضا لهذا الزواج معارضا له، الإتفاقية التي عقدتها الأميرة ايزابيلا (ايسابيلا) حتى تقبل بهذا الزواج فبنود الإتفاقية تؤكد أنها ستمارس بعد ووفاة أخوها الملك هنري الرابع واعتلائها العرش دورها السياسي كملكة لقشتالة دون قيد أوشرط ستمارسه كاملا لا ينقص منه زوجها فرناندوالخامس ولا يمحوه ولكن على الرغم من يقظتها لذلك كله وحرصها وحيطتها الشديدتين إلا أن زوجها كان يسعى جاهدا للانفراد بالحكم والاستحواذ عليه، الأمر الذي لم ترضى به ايزابيلا وبقيت ثابتة عند موقفها لا ترضى إلا بالحكم المشترك. [8]

حينما تزوجت ملكة قشتالة الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) بملك أراجون الملك فرديناند (فرناندوالخامس) اتحدت اسبانيا النصرانية نهائيا بفضل هذا الزواج واندمجت مملكة قشتالة ومملكة أراجون فغدت مملكة واحدة موحدة، يحكمها كلا الملكين الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) وزوجها الملك فرديناند (فرناندوالخامس).[9]

صفات أوسمات الملكة ايزابيلا من منظور المؤرخين الإسبان والمؤرخين المسلمين.

وعن صفات أوسمات الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) التي خولتها أن تكون ملكة يخلد ذكرها التاريخ، إنه لمن أبرز هذه الصفات وفقا لمنظور المؤرخين اللذين كتبوا عنها في التاريخ الإسباني، أنها كانت ذات حماسة دينية وغيرة دينية وورع، كما كانت تتمتع بالحكمة منذ صغر سنها، بينما من منظور التاريخ الإسلامي الأندلسي ما هي إلا ملكة عميقة وشديدة التعصب الديني دفعت بالحروب على غَرناطة إلى أن تأخذ صبغة الحروب الصليبية التي شنت على المشرق بل كانت أشد عمقا وقسوة ودموية من الحروب الصليبية على المشرق. [10] [11]

غَرناطة ودور سلاطين بني نصر وبالأخص السلطان أبوالحسن علي في الدفاع عنها أمام أطماع الملكين الكاثوليكيين ايزابيلا وفرديناند.

لم يكن سلاطين بني نصر عديمي الكرامة وفاقدي الغيرة على دولة الإسلام في الأندلس وعلى تاريخ البطولات التي قدمها وبذلها المسلمون على مدار الثمانية القرون لحكمهم في شبه جزيرة ايبريا ولكن أفعالهم لم تكن ترقى لما تتطلبه وتقتضيه فترة حكم الملكين الكاثوليكيين ايزابيلا وفرديناند من المقاومة وإعداد الجيوش وتضحيات منقطعة النظير وعدم الدخول في حروب داخلية تضعف وتهدد كيان

دولة الإسلام في الأندلس، ولكن هنا سوف أقوم بذكر مثالا لأحد سلاطين دولة بني النصر أوبني الأحمر في غرناطة يبين رفضه الإذعان والخضوع لايزابيلا وفرديناند وكيف أن هذا الموقف كان له أثرا لدى كل من الملكين الكاثوليكيين ايزابيلا وفرديناند بحيث أن عزز من إصرارهما على الحرب مع آخر معقل للمسلمين في غَرناطة.

يذكر أن السلطان أبوالحسن علي أوكما يعرف بمولاي أبوالحسن بعد أن تسلم الحكم في غرناطة انقطع عن إرسال الجزية المقررة لدولة قشتالة، ولذلك أرسل كلا من ايزابيلا وفرديناند للسلطان أبوالحسن علي السفراء لمطالبته بدفع الجزية لقشتالة وحينما امتثل سفراء الملكين الكاثوليكيين ايزابيلا وفرديناند أمام السلطان أبوالحسن علي كان رده لهم أنه من سبقه من سلاطين بني النصر اللذين كانوا يقومون بدفع الجزية مجبرين لقشتالة وكلا من ملكيها قد ماتوا وأن دولة غرناطة في ظل حكمه (أي حكم السلطان أبوالحسن علي) لن تضرب النقود إلا لإعداد العدة من السيوف والرماح ذات الرؤوس الحديدية. [12]

وقد رد الملك فرديناند بسخط على هذه الرسالة (أي على رسالة السلطان أبوالحسن علي) التي وصلت إليه أثناء تواجده مع ملكته ايزابيلا في اشبيلية Seville أنه سوف ينتزع ويقتلع بذور رمانة الأندلس (كناية عن غَرناطة فهي رمانة الأندلس) بذرة بذرة، واحدة تلوالأخرى.[13] "I will tear the seeds from this pomegranate one by one".

الدور السياسي الذي لعبته الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) في حصار وتسليم وسقوط غرناطة.

حصار غَرناطة

عسكر الملك فرديناند (فرناندوالخامس) بجيشه على ضفاف نهر شنيل Genil في ال 23 من شهر ابريل / نيسان سنة 1491م (أي في 12 جمادى الثانية سنة 896 هـ) على بعد فرسخين من الحاضرة الإسلامية غرناطة، ضاربا حول غرناطة حصارا صارما على أن لا يحلها من الحصار إلا بفتح المدينة أوباستسلامها، وفي المكان ذاته أنشأ الملك فرديناند (فرناندوالخامس) مدينة مسوّرة كي يقي بذلك جنوده برد الشتاء إن استمر حصار غَرناطة إلى حين قدوم فصل الشتاء وأيضا كان هدفه الأساسي من بناء المدينة الذي استغرق بناؤها ثلاثة أشهر، أن يؤكد على استمراره بحصار حاضرة المسلمين غَرناطة إلى أن يتحقق له فتحها أواستسلامها، ولكن هل وقفت الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) مكتوفة الأيدي تشاهد زوجها الملك من بعيد بلا دور هنا ؟ بل على العكس تماما فقد أطلقت على هذه المدينة اسما ومن يتمعن في معناه يفهم القدر الهائل الذي تحمله هذه الملكة المرأة من العصبية الدينية حيث أطلقت على المدينة اسم " Santa Fé " "شنتفى" ومعناه باللغة العربية " الإيمان المقدس" [14]

وفي ضاحية أرميليا Armilla (أرملة) الواقعة جنوب غَرناطة حيث كانت الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) تنتظر بفارغ الصبر متى تدخل المدينة المستسلمة (أي تنتظر دخول غرناطة) عرَّج أبوعبد الله على الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) وبصحبته أمه (عائشة الحرة) وزوجته (مريمة) وأخواته بعد أن سلم مفاتيح الحمراء لعدوه المنتصر (فرناندوالخامس) وسلَّم خاتمه الذهبي لمحافظ المدينة الإسباني النصراني الكونت " دي تندليا " وما كان من الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) إلا أن عاملت أبوعبد الله برقة ولطافة، وحاولت التخفيف من آلام فقده حاضرة المسلمين في الأندلس وما الذي كان سيمنعها من فعل ذلك فما كان يعتريها من الغبطة والسعادة بعد أن تحقق مرادها بسقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس مكنها من معاملة أبا عبد الله بتلك الرقة واللطافة، وأيضا لم تبخل عليه فقد سلَّمته (أي لأبي عبد الله) ابنه الصغير حيث كان ضمن

الرهائن، وسمحت له بمتابعة مسيره نحوما أقطعته هي وزوجها "الملكان الكاثوليكيان" ايزابيلا وفرديناند من أراضي مقابل تسليمه غَرناطة ضمن المعاهدة السرية المعقودة دون علم العامة (في شهر سبتمبر من سنة 1491م قبل تسليم غرناطة بثلاثة أوأربعة أشهر) على أن يعيش فيها مع أهله آمنا تحت حكم الملكان الكاثوليكيان [15].

تم توقيع معاهدة تسليم غرناطة في ال25 من شهر تشرين ثاني / نوفمبر 1491م (25 – 11 1491م) بعد أن حظيت بموافقة الملكان الكاثوليكيان (ايزابيلا وفرديناند)، ومن هنا نجد أن الدور السياسي الذي كانت تمارسه ايزابيلا كان بارزا جليا، فها هي جنبا إلى جنب مع زوجها تشاطره مهامه السياسية، مشاركة إياه في مفاوضات تسليم المسلمين لغرناطة وتوقع معاهدة التسليم معه بحيث لا يقل توقيعها أهمية عن توقيع زوجها الملك فرديناند الخامس فهوبذات أهمية، ولم يقتصر دور الملكة ايزابيلا السياسي على هذا القدر فحسب، فنجدها وزوجها الملك فرديناند الخامس يتخذان من نقض بنود هذه المعاهدة النهج الذي سوف يسيران عليه في حكم غرناطة بعد تسليمها لهم.[16][17]

فتح كلا من الملكة ايزابيلا (ايسابيلا) وزوجها الملك فرديناند (فرناندوالخامس) مملكة غَرناطة، وفي غَرناطة كان مثواهما الأخير حيث يرقد كلاهما في كنيسة غَرناطة العظمى (أوكاتدرائية غَرناطة) التي شُيِّدت فوق موقع المسجد الجامع بل الأصح على أنقاض المسجد الجامع، وكأن اختيار هذه الكاتدرائية لتكون مدفنا لكلا الملكين فاتحي غَرناطة المسلمة يحمل في طياته رسالة لمن يخلفهم تفيد بظفرهما على الإسلام عاكسين بذلك مدى التعصب الديني الذي حمله كلا من ايزابيلا (ايسابيلا) وفرديناند (فرناندوالخامس) أثناء حروبهما على غَرناطة.[18] [19]

الملكة ايزابيلا وديوان التحقيق الإسباني (محاكم التفتيش الإسبانية).

تقدم الملكان الكاثوليكيان الملكة ايزابيلا والملك فرديناند بطلب إنشاء ديوان التحقيق الإسباني The Spanish (Inquisition) أوكما يعرف أيضا بتسميته الشهيرة ألا وهي محاكم التفتيش الإسبانية إلى البابا سيكستوس الرابع Pope Sixtus IV وقد أعطاهم موافقته على ذلك بموجب مرسوم بابوبي (Papal bull) أصدره في الأول من تشرين الثاني / نوفمبر عام 1478م (1 / 11 / 1478م)، وبموجب هذا المرسوم الذي أصدره البابا سيكستوس الرابع، مُنِحت الملكة ايزابيلا السلطة في المضي قدما بتعيين اثنين من القساوسة، بحيث يكون كلا منهما حاصلاً على درجة البكالوريوس أودرجة الماجستير في علم اللاهوت، وأن يزيد عمر كل منهما عن الأربعين عاما، وذلك ليبدآ بإجراء التحقيقات في أعمال الإنحراف والهرطقة ضد الإيمان الكاثوليكي في قشتالة، إلا أن الملكة ايزابيلا ولسبب غير معروف، لم تمارس سلطتها في تعيين اثنين من المحققين إلى بعد مضي سنتين أي في عام 1480م وعلى وجه الدقة في الشهر التاسع من هذا العام أي في شهر أيلول/ سبتمبر، بحيث عينت كلا من المحقق خوان دي سان مارتن (Juan de San Martin)، والمحقق ميخائيل/ ميجيل دي موريليو(Miguel de Morillio).[20][21]

لم تكن الملكة ايزابيلا وزوجها الملك فرديناند (فرناندوالخامس) في بادئ الأمر يَرغبان بإنشاء ديوان التحقيق الإسباني (محاكم التفتيش)، ويرجع ذلك لا لتقواهما وشدة ورعهما من أن يبغيا على الرعايا في مملكتهما مملكة قشتالة وليون أوأن يُرهِقا شعبهما بالشَطط والطُغيان، فقد سبق وأن أنشأت محاكم التفتيش أومحاكم التحقيق كما تسمى أيضا في مملكة أراجون في أوائل القرن الثالث عشر، وإن لم تكن تشبه هذه التي تم إنشائها في مملكة قشتالة وليون، كما وقد سبقت هذه وتلك محاكم التفتيش التي كانت منتشرة في كل من ايطاليا وألمانيا وفرنسا وفي أنحاء أوروبا المختلفة، وإنما يرجع السبب في أن الملكين الكاثوليكيين كانا يعارضان فكرة إنشاء ديوان التحقيق الإسباني في بادئ الأمر، وذلك على الرغم من أنَّ البابا سيكستوس الرابع كان قد أرسل مبعوثا بابويا لهما، كما وزوده بكل السلطات والصلاحيات التي يحتاجها للتحقيق، ومن ثم القبض على الكفرة، والمارقين، وإخضاعهم للعقوبات التي يستحقونها كما يقتضيها، ويرتضيها المبعوث البابوي جراء أفعالهم النكراء، وعلى الرغم من أنَّ الملكيين الكاثوليكيين كانا ينعمان بتحقيق النصر المضطرد على الأندلس الإسلامية سواء أكان في الحرب أم في السياسة ويتمتعان بقوة كانا يستمدانها من متابعتهما للحروب الصليبية على مسلمي الأندلس الإسلامية التي لم تعد تتعدى حدودها السياسية مملكة غرناطة تحت حكم سلاطين بني الأحمر (أوبني نصر)، وبالرغم من كل هذه الأسباب التي[22]

تدفع بالملكيين الكاثوليكيين دفعا منذ البداية لإظهار الحماسة لإنشاء ديوان التحقيق وبلا تردد أومعارضة أومقاومة، إلا أن كلا من الملكة ايزابيلا وزوجها الملك فرديناند كانا يخشيان من أن تمتد سلطة الكنيسة الكاثوليكية، والبابوية من خلال ديوان التحقيق الإسباني إلى مملكة قشتالة وليون، فتحد من سلطات الملكين الكاثوليكيين، فيغدوان خاضِعَيْن لسلطة الكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي يفقدا استقلالهما السياسي، وعلى العكس من ذلك تماما، فقد اعتبر إنشاء ديوان التحقيق الإسباني أكبر نصر حقّقه الملكان الكاثوليكيان وذلك لأنه خضع لسلطتهما المباشرة، الكاملة، غير المنقوصة ؛ أي دون أن يخضع ديوان التحقيق الإسباني لسلطة وقرارات الكنيسة الكاثوليكية، وبالأخص قرار تعيين محققي ديوان التحقيق الإسباني.[23][24]

أنشأت أول محكمة تفتيش (محكمة تحقيق) في مدينة إشبيلية أوبالأحرى في عاصمة المملكة الإسبانية (والتي تشمل كلا من مملكة قشتالة وليون ومملكة أراجون كلا المملكتين معا)، كما وترافق ذلك مع تشييد أولى محارق محكمة التفتيش في إشبيلية العاصمة، ولم يقتصر ديوان التحقيق الإسباني على محكمة تفتيش إشبيلية وحسب، فقد أنشأت العديد من محاكم التفتيش في كل من

قرطبة (كان سقوطها بيد الملك فرديناند الثالث في عام 1236م وبعدها بحوالي اثني عشر عاما أي في عام 1248م استسلمت اشبيلية في نهاية المطاف لملك قشتالة وليون بعد حصارٍ كان قد فرضه عليها، وتعد اشبيلية أول عاصمة للمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبعد أن نُقِلت عاصمة المسلمين إلى قرطبة في عصر الولاة عدت قرطبة ثاني عاصمة للمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية)[25]، وجيَّان، وشقوبية، وطليطلة، وبلد الوليد، بحيث يشمل نشاط ديوان التحقيق سائر أرجاء المملكة الإسبانية، وقد تم ذلك بعد شهر شباط / فبراير من عام 1482م. [26]

استمر ديوان التحقيق الإسباني في ممارسة نشاطاته حتى بعد سقوط غرناطة في الثاني من يناير عام 1492م (2 / 1 / 1492م) وتسليمها للملكين الكاثوليكيين لغاية ثلاثة قرون قادمة، وفي مملكة غرناطة وجد ديوان التحقيق الإسباني أرضا خصبة لممارسة نشاطاته التي أبعد ما تكون عن تحقيق الإصلاح والعدل وعدالة، دون ظلم أوجور، وقد شكل المسلمون واليهود ممن كانوا يقطنون في مملكة غرناطة أي سكانها الأصليين ضحايا أحكامه وممارساته، والتي كانت تبدأ بجز المتهم بالكفر أوالمروق (الزيغ) إلى سجن من سجون ديوان التحقيق السرية، وقد كانت هذه السجون رطبة، عميقة، مظلمة، غاصة بالجرذان والحشرات، والمتهمين مصفدين فيها بالأغلال، كما وتتصل هذه السجون بغرف التحقيق والعذاب أوالتعذيب مباشرة، أي إننا أقل ما يمكننا أن نصف به هذه السجون أنها

سجون مروعة، شنيعة، فظيعة، وأما عن العقوبات التي كان يخضع ديوان التحقيق الإسباني المتهمين لها وينزلها بهم، فإن أولى هذه العقوبات هي القبض عليهم وزجهم بالسجون السرية لما يرتبط بذلك ويترتب عليه من تبعات خطيرة وعواقب وخيمة، حيث تتم مصادرة أملاك السجين بالكامل كما وتتم تصفيتها فورا (أي يبدأ ديوان التحقيق بسرقة ونهب السجين تحت غطاء تحقيق الإصلاح والعدل والعدالة وتطهير الإيمان المسيحي الكاثوليكي من الكفر والزيغ)، ناهيك عن سقوطه في بئر من الحزن والعزلة لأن علاقاته مع العالم تُقطَع إلى حين انتهاء محاكمته، وتستغرق محاكمة السجين في العادة من عام إلى ثلاثة أعوام لا يعرف خلالها ما ينتظره من مصير وكذلك هوالحال بالنسبة لأسرته، وعلاوة على دلك فإن السجين القابع في سجون ديوان التحقيق يوصم بوصمة العار ويسبع بسبعة ما كانت لتطاله لوأنه سجن في أي سجن ديني أومدني آخر (أي أن سجين ديوان التحقيق الإسباني يحظى بحياة مدمرة داخل السجن هذا إن بقي على قيد الحياة وتنتظره حياة ملؤها البؤس وموسومة بالعار خارج السجن هذا إن خرج)، أما عن التعذيب وطرقه سواء أكان ذلك أثناء انتزاع إعتراف المتهم من تُهَمٍ في معظم الأحيان تكون قد تم تلفيقها له ويكون هومنها بريء، أوبعد أن ينتزعوا اعتراف منه بعد أن أوهموه أنه إن اعترف بما نسب إليه ظلما وفجورا، سينعم(استخدمت هنا كلمة ينعم من قبيل الإستهزاء والسخرية) بعقوبات أخف (وهم يكذبون بإدعائهم هذا بطبيعة الحال)، ومن الأمثلة على ضروب وطرق التعذيب التي تعرض لها السجناء :[27]

" تعذيب الجاروكا " ويتم بربط يدي المتهم خلف ظهره، وذلك بربط راحتيه وبطنه بحبل يكون له طرف معلق بحيث يرفع المتهم ويخفض بواسطة هذا الحبل أي يصبح المتهم معلقا يرفع ويخفض بالهواء، وقد يكون المتهم بمفرده دون أثقال تربط معه أوبعد أن تربط أثقال إلى جسده ترتفع وتنخفض معه، وتعذيب القدم بالأسياخ المحمية، وكذلك تعذيب البطن والعجز بالقوالب المحمية، كما وتُمزَّق الأرجل، ويُفسَّخ الفك، وبالآلات الضاغطة تسحق العظام، وغيرها الكثير من طرق التعذيب الوحشية التي لا تعرف معنى للرحمة أوالإنسانية، ولا تراعي تفاوت المتهمين في قواهم الجسدية وفي قدرتهم على التحمل للتعذيب المادي والعقلي، فلا يراعى جنس المتهم، ولا سنه، ولا مرضه، لا يراعى أي شيء ولا يأخذ أي متهم بعين الإعتبار، وفي حالة إدانة المتهم بالكفر الصريح، فإن الحكم الذي ينفد به هو" إعدامه حرقا " دون أن يتم إعلامه لا بإدانته ولا بأنه سيأخذ لإعدامه حرقا، وينفد حكم الإعدام حرقا بعدد من المحكوم عليهم يصل عددهم أحيانا

إلى العشرات، وهم منتظمين في موكب يسمى موكب "الأوتودافى" auuto da fé)) منتظرين أن يحرقوا في منظر يبث الرهبة في النفوس، ولكن رغم رهبته تهرع إليه جموع الشعب لتشهده، وبذلك يتحقق الغرض من هذه المحارق العامة ألا وهي زرع الخوف والرهبة في قلب كل من يخالف أويتصدى لمحاكم التفتيش أوللملكيين الكاثوليكيين اللذين يشهدان على ذلك دون أي يحاولا إصلاحه أوايقافه، بل إن الملك فرديناند الخامس زوج الملكة ايزابيلا، كان يستمتع بل يعشق مشاهدة مواكب الأوتودافى وحفلات الإحراق.[28]

وأما بالنسبة للموريسكيين أوالعرب المتنصرين، فقد شكّل عام 1499م عاما فارقا ابتدأ معه تاريخ معاناتهم، إذ وفي هذا العام تحديدا، أكره المسلمون على التنصير، أي بما معناه أن أبناء الأمة المسلمة بأسرها في مملكة اسبانيا (قشتالة وليون وأراجون) سينفد بهم حكم الإعدام حرقاً.[29]

الخاتمة.

وفي الختام نستنتج أن الملكة الكاثوليكية ايزابيلا، ملكة قشتالة وليون، كان شغلها الشاغل بعد اعتلاء عرش مملكة قشتالة وليون، هوالقضاء على آخر معقل من معاقل المسلمين والذي تمثل بمملكة غَرناطة الأندلسية الإسلامية، مندفعة بما تربت عليه منذ صغرها وما حملته عند كبرها من تعصب أعمى تجاه الإسلام والمسلمين، وقد نجحت في تحقيق ما تصبوإليه من إسقاط لمملكة غَرناطة الأندلسية بالتعاون مع زوجها الملك فرديناند الخامس بعد أن تزوجا ووحدا مملكتيهما مملكة قشتالة وليون ومملكة أراجون في مملكة واحدة متحدة موحدة وتحت عرش واحد في الوقت الذي كان فيه سلاطين الأندلس الإسلامية في مملكة غَرناطة يتنازعون ويتناحرون فيما بينهم، الأب وابنه، والعم وابن أخيه، للانفراد بالسلطة والحكم بدلا من أن يوحدوا جهودهم سويا، وبالطبع كان الملكان الكاثوليكيان لا يكلا ولا يملا ولا يبخلا أوينأيا بأدنى شيء يذكي ويزيد من سوء الصراع بين السلاطين المسلمين سلاطين بني الأحمر (أوسلاطين بني نصر)، واستمرت الملكة ايزابيلا في حربها على الإسلام والمسلمين بعد تسليم السلطان أبوعبد الله الصغير غرناطة لزوجها الملك فرديناند الخامس ولها، حتى بعد أن وقَّع معهما معاهدة التسليم التي تحفظ للمسلمين كرعايا في مملكة اسبانيا حقوقهم المدنية والدينية، ولكن كيف لملكة لاحقت محاكم التفتيش الخاضعة لسلطتها أبناء دينها المسيحي اللذين تشترك معهم في ذات الدين، وأنزلت بهم أشد وأقسى ضروب العذاب، وشيَّدت المحارق الجماعية لهم بحجج الكفر والمروق، كيف لها أن تأخذ المسلمين بعين الرحمة أوتسامح الأديان، أوأن تبقيهم في أراضيهم بالوقت الذي ستبقى هي تحت وطأة الخوف ونهابة له من أن يسترد المسلمون قوتهم من جديد، ويسترجعوا ما سلبهم الملكان الكاثوليكيان من الأراضي، بل عمدت إلى تنصيرهم فأصبحوا يسمون بالمورسيكيين أوالعرب المتنصرين، وبعد أن تنصروا لم تتركهم محاكم التفتيش وشأنهم بل عمدت إلى ملاحقتهم والتشكيك بصدق وعدم زيف إيمانهم بدينهم الجديد، وحرقهم، وإنزال أشد أصناف الإذلال والمهانة بهم، متذرعين بحجج تافهة واهية لا يرتضيها عاقل ولا مجنون، كل ذلك وأكثر إلى أن توفيت الملكة ايزابيلا في 26 من شهر نوفمبر 1504 م، وقد استمر زوجها ومن أتى بعده بإعطاء الحبل على الغارب لممارسات محاكم التفتيش، وغض الطرف عن أفعالهم، لأن في ذلك تحقيقا لمصلحة الملك فرديناند ومن أتى بعهده وخلفه من الملوك، ولكن هنا أود أن لا أدع القارئ يتشاءم ويغرق في بئر من الحزن واليأس، فالأندلس وإن كان انتهى كيانه ووجوده السياسي في شبه الجزيرة الإيبيرية إلا أن حضارته العربية الإسلامية ما تزال قائمة شامخة، لا يمكن لأي كان التغافل عنها، أوتهميشها، أوإنكارها، وما يزال الإسلام لم يقضى عليه في تلك الأراضي، فأحفاد الموريسكيين الذي حافظوا على دين أبائهم وأجدادهم المسلمين ما يزالون في صمودهم هناك، ناهيك عن أن الإسلام آخذ بالانتشار بسبب التطور التكنولوجي الحالي، وسهولة التعرف إلى الإسلام دون أن تشن الحروب أوتفتح البلاد لتحقيق ذلك، إضافة إلى أنَّ طلبة العلم وغيرهم اللذين يسهمون بأخلاقهم الإسلامية الرفيعة بعكس صورة الإسلام الأندلسي دون زيف أوتشويه وذلك في شتى مجالات الحياة ومناحيها المختلفة.

Abstract

The Political Role Of The Isabella On The Fall Of The kingdom Of Granada.

By Tharwat Ahmed Mahmoud Obaidat

This research studies the political role was played by The Queen of Castile and Leon Kingdom , The Catholic Queen Isabella and its impact on the fall of the kingdom of Granada and her persistent (or tenacious) seeks (or endeavors) that were continued after Granada's Fall and until the death of the queen itself in 1504AD which were aimed to terminate and destroy the Islam and The Muslims in Spain , and while this is the headline topic which is this research studied , this research also spot the light and discuss some subtopics to let the researchers or any kind of readers to get a complete overlook on headline topic , through looking closely at the queen's Isabella of Castile and Leon birth and her royal parents , siblings , ancestors and then digging into how she inherited the thrown of Castile and Leon kingdom and how she became married to Ferdinand the fifth (Ferdinand V) king of Aragon and mention the consequences of the royals marriage , and through consider queen Isabella's character traits that characterized with and suited her or not as one of the queens which history talked about either in a good or a bad way which depends on chronicler perspective , also this research reveals the sincerely attempts of Granada's Sultans especially sultan Ali AbulHacen to defend kingdom of Granada from greed of the catholic monarchs , then inspects the political role which was played by queen Isabella while the siege and then the surrender and fall of Granada , at the end this research give an obvious approach to the Spanish inquisition actions and queen Isabella authority on them.

الهوامش

(1) Prescott, William H., **Historyof The Reign of Ferdinand and Isabella , The Catholic , of Spain** , Volume 1, London - UK , 5th edition , 1849 , p 115.

(2(Prescott, William H., **Historyof The Reign of Ferdinand and Isabella , The Catholic , of Spain** , vol 1 , p 115.

(3) Prescott, William H., **Historyof The Reign of Ferdinand and Isabella , The Catholic , of Spain**, vol 1 , p 115.

(4)عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 174، ص 175.

(5)عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 175، ص 176.

(6) Prescott, William H., **Historyof The Reign of Ferdinand and Isabella , The Catholic , of Spain** , vol 1 , p 168 , p 171 , p 172.

(7)عنان، الأستاذ محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 180، ص 184.

[8]Prescott, William H., **Historyof The Reign of Ferdinand and Isabella , The Catholic , of Spain** , vol 1 , p 173 , p 174 , p 175 , p 176 , p 177 , p 178 , p 179.

(9)عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 26، ص 83.

(10)عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 83.

(11) Prescott, William H., **Historyof The Reign of Ferdinand and Isabella , The Catholic , of Spain** , vol 1 , p 162 , p 170 , p 171.

[12] Plunket, IerneL., **Isabel of Castile and the Making of the Spanish Nation (1451 - 1504 (**, p 162.

[13] Plunket, IerneL., **Isabel of Castile and the Making of the Spanish Nation) 1451 - 1504 (**,p 163.

(14)عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 236.

(15) عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 260، ص 261.

(16)عنان، الأستاذ محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 241، ص 242، ص 243، ص 244.

(17) مجهول، المؤلف، **نُبذة العَصر في أخبار ملوك بني نصر تسليم غَرناطة ونزوح الأندلسيّين إلى المغرب**، ص 41.

(18)(عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 26، ص 83.

(19) *حتاملة، الدكتور محمد عبده حتاملة، **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطةوبعدها**، ص 52*

[20]Nykanen , Lori, **Queen Isabella and The Spanish Inquisition 1478 - 1505 ,** UniversityOf Central Florida, Orlando / Florida - USA , 2014 , p 29 , p 30.

[21]عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 331.

[22]عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 329، ص 330، ص 331.

(23)(عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 329، ص 330، ص 331.

([24])Nykanen , Lori, **Queen Isabella and The Spanish Inquisition 1478 - 1505 ,** UniversityOf Central Florida, Orlando / Florida - USA , 2014, p 29.

[25]بروفنسال، الأستاذ ليفي بروفنسال، **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ص 28، ص 29.

[26]عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 331، ص 332، ص 341.

[27]عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 333، ص 334، ص 335.

[28]عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 335، ص 336، ص 337، ص 338.

[29]عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، ج 4، ص 341، ص 342.

المصادر والمراجع العربية

بروڤنسال، الأستاذ ليفي بروڤنسال، **حضارة العرب في الأندلس**، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.

حتاملة، الدكتور محمد عبده حتاملة، **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطةوبعدها**، مطابع دار الشعب، عمان – الأردن، الطبعة الأولى، 1397هـ / 1977 م.

عنان، الأستاذمحمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس" العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** "، الجزء الرابع، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، الطبعة الرابعة، 1417 هـ / 1997 م.

مجهول، المؤلف، **نُبذة العَصر في أخبار ملوك بني نصر تسليم غَرناطة ونزوح الأندلسيّين إلى المغرب**، ضبطه وعلّق عليه ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد / القاهرة، الطبعة الأولى، 1423هـ /2002م.

المصادر والمراجع الاجنبية

Nykanen , Lori, **Queen Isabella and The Spanish Inquisition 1478 - 1505 ,** UniversityOf Central Florida, Orlando / Florida - USA , 2014.

Plunket, IerneL., **Isabel of Castile and the Making of the Spanish Nation) 1451 - 1504 (**, G.P.PUTNAM'S SONS , The Knickerbocker Press , New York and London , 1915.

Prescott, William H., **Historyof The Reign of Ferdinand and Isabella , The Catholic , of Spain** , Volume 1, London - UK , 5th edition , 1849.